٢١٧

جمع فضيلة وهي ما تلازم صاحبها ولا تتعداه كالعلم والشجاعة والفواضل جمع
فاضلة وهي ما تتعدى إلى غيره كالعطاء فيدخل في الثناء الجميل وغيره وخرج بتقييده باللسان
الثناء بغير اللسان ولو مجازا أو عرفا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعما واصطلاحا
إظهار صفات الكمال قولا أو فعلا أو حالا وخرج بالتعظيم المساوي للظاهر والباطن
التهكم والتمليح لأن الثناء إن تجرد عن مطابقة الاعتقاد كان ذلك تهكما واستهزاء أو
خالفه أفعال الجوارح كان تمليحا وتحسينا للكلام لا حمدا والحمد مختص بالله
كما أفادته الجملة الاسمية لأن لام لله للاختصاص سواء جعلت فيه أل للعموم أو الاستغراق
كما عليه الجمهور أي كل المحامد مختص بالله لكن منع الشمس كونها للاستغراق ولأن
المطلوب من العبد الثناء بالجميل لا الإخبار به إذ لا يمكن العبد أن يثني جميع المحامد منه ومن
غيره بخلاف كونها للجنس بل وحقيقته يخيل كونها للاستغراق في رحمه السيد في حاشية
المطول وأجيب بأن المراد ثبت عموم المحامد لله على جهة الإجمال بأن يعترف باتصافه بجميع
صفات الكمال الكمالية والجلالية وأما حمد الناس بعضهم لبعض على الإحسان المشار إليه بقوله
صلى الله عليه وسلم من لم يحمد الناس لم يحمد الله فهو في الحقيقة حمد لله لأنه المنعم الحقيقي أم الجنس
كما هو رأي الزمخشري أي جنس المحامد مختص بالله فلا فرد منه لغيره وإلا لم يتحقق الاختصاص
لتحقق الجنس في الفرد الثابت لغيره أم للعهد كالتي في قوله تعالى إذ هما في الغار أي الغار
المعهود بثبوت حمدا أي الحمد الذي حمد به نفسه وحمده به أنبياؤه وأولياؤه مختص به
والعبرة بعموم ذكره فلا فرد منه لغيره على آله السلام وهو لغة الاستسلام والانقياد
قال تعالى فلما أسلما وتله للجبين وفي الشرع الانقياد لأوامر الله تعالى ونواهيه ولا يتحقق
ذلك إلا بقبول الأحكام والإذعان فالإيمان والإسلام مفهومهما واحد لأن الإسلام شرعا
هو الخضوع بالقلب والانقياد به بمعنى قبول الأحكام والإذعان بالقلب وذلك حقيقة
التصديق الذي هو حقيقة الإيمان على ما مر ويؤيده قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من
المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وجه الدلالة أن يعني الاتحاد وإنه لا
فارد ذا المخرج من كان فيها من المؤمنين فما وجد بيتها من المؤمنين إلا أهل بيت من المسلمين
فلولا أن حقيقتهما الإسلام والإيمان واحدة لما صح استثناء المسلم من المؤمن وفي الجملة لا يصح
في الشرع أن يحكم على أحد بأنه مؤمن وليس بمسلم أو مسلم وليس بمؤمن ولا نعني بوحدتهما إلا هذا
له حاكم من آمن ولم يسلم أو أسلم ولم يؤمن فإن أثبت لأحدهما حكما ليس بثابت للآخر ظهر
بطلانه قوله إذ لا يمكن شرعا إثبات حكم لأحدهما وليس بثابت للآخر وأما قوله تعالى قالت الأعراب

أمن

النهي في قوة

آمنا الآية فأخبر الله تعالى بأن قولهم آمنا غير مطابق للواقع حيث نفى مضمونه عنهم وهذا
النهي في قوة ولذا استدرك عليه بقوله ولكن قولوا أسلمنا ولولا أن هذا القول صدق وطابق الأمر
به بعد النهي عن القول الأول لكونه كذبا وذلك صحيح في الإسلام بدون الإيمان أجيب
عن ذلك بأن الإسلام المعتبر في الشرع لا يوجد بدون الإيمان وهو في الآية بمعنى الانقياد
الظاهر من غير انقياد الباطن فهما في الآية بمعنى الإسلام اللغوي وهو مطلق الاستسلام
أي الخضوع والانقياد سواء كان بالقلب أو الجوارح الظاهرة والنطق بالشهادتين شرط
لإجراء الأحكام لا شطر من الإيمان ويزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ولذلك أدلة تطلب
من مطولات علم الكلام فإن قلت الإيمان هو التصديق بالله ورسوله والتصديق
شيء واحد لا يتجزأ فلا يتصور كماله بزيادة ونقصه أخرى أجيب بأن قبوله الزيادة والنقص
ظاهر على دخول القول والعمل وفي الشاهد شاهد لذلك فإن كل واحد يعلم أن ما في
قلبه يتفاضل حتى إنه يكون في بعض الأحيان أعظم يقينا وإخلاصا وتوكلا منه في بعضها
وكذا في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها ومن ثم كان إيمان الصديقين
أقوى من إيمان غيرهم وهذا مبني على ما ذهب إليه المحققون من الأشاعرة من أن نفس التصديق
لا يزيد ولا ينقص وأن الإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته التي هي الأعمال
ونقصانها وبهذا يحصل التوفيق بين ظواهر النصوص الدالة على الزيادة وأقاويل السلف
بذلك وبين أصل وضعه اللغوي وقال بعضهم بل يزيد وينقص قوة وضعفا وإجمالا
وتفصيلا وارتضاه الإمام النووي وعزاه السعد التفتازاني لبعض المحققين قال التاج
السبكي الخلاف لفظي والشكر لغة فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعما على الشاكر
أو غيره سواء كان هذا الفعل قولا باللسان أو عملا بالأركان أم اعتقادا بالجنان كما قال
أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا أي أفادتكم إنعامكم
علي بالآثار الثلاثة المكافأة باليد ونشر المحامد باللسان ووقوف القلب على المحبة والاعتقاد
وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله والمدح لغة الثناء باللسان
على الجميل مطلقا على جهة التعظيم وعرفا ما يدل على اختصاص الممدوح بنوع من الفضائل
وبين الحمد اللغوي والشكر اللغوي عموم وخصوص من وجه لصدقهما بالثناء باللسان
في مقابلة إحسان وانفراد الحمد المذكور بصدقه باللسان في غير مقابلة إحسان وانفراد الشكر
المذكور بصدقه بغير اللسان في مقابلة إحسان نحو الحمد أخص ومتعلقه أعم والشكر
بعكسه وبينه وبين الحمد العرفي عموم وخصوص من وجه أيضا لمساواة الحمد العرفي والشكر

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)